(٥)

الحركة الإسلامية رؤية نقدية

هل هي شعب الله المختار؟

obeikan.com

obeikan.com

نحن نؤمن بأن مستقبل هذه الأمة، بل مستقبل العالم كله مرتبط بالإسلام ، فالإسلام هو وجدان الأمة ومحركها، وهو دينها وثقافتها وحضارتها، ولن تتحرك تلك الأمة وبالتالى تواجه التحديات أو تتقدم أو تخرج من أزمتها الطاحنة، إلا بالإسلام كدين، وكثقافة وكحضارة وكأيديولوجية أيضاً، وإذا كان الإسلام كذلك، فإن الحركة الإسلامية من المفروض أن تكون طليعة هذه الأمة والمعبر عن وجدانها، وقاطرة للتغيير وخميرة النهضة، وبالتالى فإن برنامجاً صحيحاً واستراتيجية صحيحة، وتكتيكا صحيحا ضرورة من ضرورات تلك الحركة، وضرورة من أجل مستقبل الأمة، وكذلك فان الإسلام كمنظومة فكرية وسياسية واجتماعية قادر على حل مشاكل العالم، وقادر على إنقاذ المهمشين والمستضعفين وقادر على وقف الاستكبار والظلم فى العالم، وهو البديل المرشح الآن بعد فشل الماركسية لأن يكون أيديولوجية الفقراء والمستضعفين فى مواجهة الاستكبار العالمي. ولأن الأمر كذلك فإن الحركة الإسلامية تحتاج الآن بالتحديد لنوع من النقد والنقد الذاتي، يمارسه أبناء الحركة فرادى أو مجتمعين، أو الاستفادة من التجارب والخبرات وطرح الأسئلة الصريحة والقاسية والبحث عن الخلل وتحديده وعلاجه.

ومن هذه الأسئلة.. هل وصلت الحركة الإسلامية إلى طريق مسدود؟ ولماذا لم تصل إلى أهدافها بعد كل هذا الزمان وكل هذه الجهود والتضحيات؟ هل كان الخلل فى المنهج أو فى الممارسة، أو فى عدم كفاءة القيادات؟ وهل كانت الأطروحة الفكرية نفسها صحيحة؟ ولابد أن نقول هنا أن ماسوف نقدمه من نقد أو تحليل فى هذا الإطار هو نوع من الاجتهاد بمعنى انه رؤية فيها صواب وخطأ والعظمة لرسول الله ﷺ وحده، ويجب أن نقول هنا أيضا، أن التركيز على الأخطاء والخطايا لايعنى أن الحركة لم يكن لها منجزات أو إيجابيات، بل لها الكثير بالطبع، ولا يعنى أيضا أن أسباب الفشل كانت فقط بسبب العوامل الداخلية ولكن

أيضا كان هناك عوامل خارجية بعضها عالمى وبعضها محلى من مؤامرات ومطاردات وتضييق وغيرها، ولكن مع كل قسوة ذلك، فإننا نرى أن لا حركة هناك تهزم من الخارج مهما كانت التحديات، بل تأتى الهزائم عادة من الخلل الداخلي.

سنحاول الإجابة عن السؤال المطروح بقوة الآن على الساحة، وهو هل وصلت الحركة الإسلامية ـ وتحديداً فى مصر ـ إلى طريق مسدود؟ ونجيب بصراحة: نعم لأن الحركة بكل تياراتها لم تعد قادرة على تطوير نفسها أو معاودة الانتشار أو الوصول إلى أى نتائج استراتيجية، بل بعضها اعترف بخطئه فى مجمل ممارساته السابقة، وهو اعتراف يدل على الشجاعة، ويدل على ممارسة المراجعة والنقد الذاتى الجماعي، وهو أمر محمود بالطبع، ولكن الطريقة الفكرية التى تمت بها المراجعة وكذلك الآراء التى وصلت إليها تلك المجموعة لمواجهة المستقبل والحاضر تعبر فى جانب منها عن نفس الأزمة الفكرية، أى أنها قرأت الواقع خطأ مرتين، وليس هنا مجال مناقشة أرائها الجديدة نقطة نقطة، ففيها الكثير من المنطلقات الصحيحة والبديهيات التى كانت غائبة ولكنها افتقرت إلى تحديد الخطأ المنهجى الذى هو أصل الفشل والتخبط فى كل الحركات والممارسات، ومن ثم وقعت فى أخطاء فادحة أخرى عند تطبيق مفاهيمها الجديدة على الواقع الحالى والمستقبل.

والخطأ المنهجى إذا ما تم وضع اليد عليه، فسوف يريحنا كثيراً من القضايا الجانبية، فالعيب لم يكن فى مشروعية الحركة كما يزعم البعض، ولا فى عدم كفاءة القادة أو عدم إخلاصهم أو انتهازية بعضهم، ولا فى التقاعس عن تقديم التضحيات، ولكنه كان خطأ بنيويا، ذلك أن الحركة لم تسأل نفسها فى البداية، من نحن، وماذا نريد، وعلى أى أرضية نتحرك؟

هل نحن دين جديد، أم فرقة دينية جديدة؟ ماهى العلاقة الصحيحة مع الأمة والمجتمع؟ لو سألت نفسها أسئلة من ذلك النوع وأجابت إجابة خاطئة عليها،

ولاشك أن هذا الخلل البنيوى لم يؤد فقط إلى الوصول إلى طريق مسدود، بـل أدى إلى ظهور جماعات وتيـارات وممارسـات وأفكـار متطرفـة، ذلـك أن عـدم اتخـاذ الموقف الصحيح سوف يؤدى إلى ظهور انحرافات على الجانبين تهاون ـ تشدد .

وبديهى أن الحركة الإسلامية ليست دينا جديدا، بل هى ملتزمة بما استقر عليه المجموع من عقائد وقضايا وأفكار، وبديهى أن الحركـة الإسـلامية ليسـت فرقـة دينية جديدة، فالواقع لايحتمل ظهور فـرق دينيـة جديـدة، وبالتـالى فهـى ليسـت متميزة عن الأمة لا فى العقائـد ولا فى الأفكـار ، وإن كـان لـبعض العلمـاء داخـل الحركة أو خارجها اعتراضات عـلى بعـض القضـايا، فصـحف الحركـة وأدبياتهـا واجتماعياتها ليست مجالا لمناقشة هذا الخلاف، بل الخلاف على القضايا العلمية يكون داخل معاهد العلم ومن خلال العلماء، والحركة لاعلاقة لها بهذا من قريب أو بعيد، وهذا يدفعنا إلى الإجابة عن السؤال: من نحن؟ والمفروض أننا جزء مـن هذه الأمة، قررنا تحمل تضحيات أكبر ومسئوليات أكبر وليس وجاهـة أو تصـدراً أو قيادة ـ وبالتالى فنحن نلتزم بأن نكـون مجـرد طليعـة للأمـة لخـوض تحـدياتها الاسـتعمار ـ الصـهيونية ـ التخلـف ـ الاسـتبداد السياسـي، الظلـم الطبقـى ـ التعصب... الخ وليس أن نكون بديلاً عن الأمة، لأن الأمة ـ كـل الأمـة ـ مسـئولة عن خوض المعارك والتحديات.

أى أننا خلايا حية تعمل على تنشيط باقى خلايا الجسد، وليس بمعـزل عنـه أو بديلاً عنه، لأن ذلك يعنى أن نتحول إلى وباء أو سرطان ونضر مهما كانـت نوايانـا حسنة.

وهذا يطرح بدوره فكرة تسمية الجماعة وهو من وجهة نظرى مسمى يعبر عن الخلل البنيوى المذكور، حتى لو تم تخفيف الأمر بأنها ليست جماعة المسلمين بل هى جماعة من المسلمين، إننا مرة أخرى مجرد طليعـة، أو قـاطرة أو حتـى حـزب سياسى ولا عيب فى ذلك، لنا أطروحة بشرية تستند إلى الإسلام كمرجعية، ولسـنا

شعب الله المختار، ولا نمتاز عن الناس بشئ، ونحن مجرد حلقة من حلقات النضال والكفاح سبقتها حلقات وتتبعها حلقات، بمعنى أننا لانمتلك كل الحقيقة، ولسنا الذين اخترعنا الإسلام، ولا حتى الحركة الإسلامية المعاصرة، فالحركة الإسلامية فى رأيى هى كل الحركات التى حاولت أن تقود الأمة لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية، إنها عبد الكريم الخطابي، وعبد القادر الجزائرى وعمر المختار، وعمر مكرم ومحمد كريم والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد حسين وعز الدين القسام وكل من قاوم الاستعمار أو الصهيونية أو الاستبداد، نحن إذن مجرد حلقة سبقتها حلقات وتتبعها حلقات والوقوف عند حلقة واحدة هو نوع من الجهل والتعصب والجمود، وهو خطأ وخطر على كل مستوي.

كلمة الجماعة إذن، والممارسات المرتبطة بالجماعة ـ شكلت نوعا من العزلة والانعزال، وطرحت نوعا من التكفير السلبي، أو على الأقل تمييز من هم بداخل الصف عمن هم ليسوا به، أو نوعا من التعامل الخاص بين أفراد الجماعة الواحدة، وبما أن الإسلام ملك للأمة كلها، فهذا نوع من الاحتكار والتكفير الصامت غير المعلن!! وهو أمر خطير جداً شكلاً ومضمونا. فكرة الجماعة، والصف، والتنظيم قادت إلى إشكاليات أخري، فمكاسب الجماعة أو الصف أو التنظيم يجب المحافظة عليها وعدم إهدارها، حتى لو كان ثمن ذلك التخلي عن مطالب الجماهير، أو تأييد موقف يضر بالحريات أو يضر بالفقراء أو يمثل موقفا صامتا أو مراوغاً تجاه قضية ما، وبديهى أن الجماعة أو الصف أو التنظيم ليست غاية بل هى وسيلة لتحقيق أهداف وغايات وإذا تعارضت الوسيلة مع الغاية يمكن التخلى عن الوسيلة وبالتالى لو كانت المسألة تجرى على أساس أننا مجرد حزب سياسى يرى رؤية وبرنامجا معينا فى وقت معين يمكن أن يتغير ويتطور، ويمكن حل الحزب وعدم التمسك به إذا كان استمراره يتعارض مع المواقف المبدئية والأخلاقية، لكان الأمر أسهل كثيراً،

ولعل هذا يفتح الحديث عن الخطأ الخطير الذى وقعت فيه الحركة الإسلامية فى مصر حين لجأت إلى أسلوبى العنف ـ التربية ولاشك أن الأسلوبين خاطئان، وغير ملائمين لأوضاع مصر الاجتماعية والسياسية، والصحيح أن هناك وسطاً بين هذين، وهو النضال السياسي، ولعل هذا يطرح تحليل برامج الجماعات ـ التى ركزت على قضايا ليست محل اهتمام أى حركة صحيحة باعتبارها ليست دينا جديداً ولا فرقة دينية جديدة، ولاشعب الله المختار، فالتركيز على فكرة الدعوة مثلاً، هو تفكير غير صحيح فالدعوة تكون لغير المسلمين ـ هل ندعو المجتمعات الإسلامية إلى الإسلام مثلاً، ولكن الصحيح هو النضال من أجل إيقاظ النائمين وتحريك السلبيين والنضال من أجل توسيع الحريات، والنضال من أجل رفع الظلم الاقتصادى أو مواجهة الفساد وعدم تكافؤ الفرص، أو مواجهة الكيان الصهيونى أو مواجهة التخلف والجهل، أو حتى طرح أنفسنا بالتحالف مع القوى المناهضة للعولمة فى العالم كرأس رمح فى مواجهة الاستكبار الأمريكي، وطرح الإسلام كمنظومة أو كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين فى العالم لمواجهة المشروع الأمريكى الصهيونى العولمى وتحالف الرأسماليين والعسكر خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر.

الخطأ المنهجى الآخر ـ هو عدم إدراك الحركات الإسلامية مسألة الهزيمة الحضارية فلا شك أننا كأمة وكحضارة مهزومون أمام الحضارة الغربية، وفى غضون القرنين الأخيرين على الأقل تم ذلك وتكرس، وأمريكا وإسرائيل والغرب يمتلكون تفوقا علميا وعسكريا واقتصاديا وسياسيا علينا، ولابد أن ندرك هذا المتغير الخطير فى حركتنا وكذلك فى طريقة فهمنا للأمور وفى مطالبنا السياسية والاجتماعية وعلاقتنا بالحكومات فلسنا فى عصر الدولة العباسية مثلاً، حيث يقول الخليفة للسحابة التى تمر أمامه: أمطرى حيث شئت فسوف يأتينى خراجك، فالذى حدث أننا كأمة وحضارة مررنا بعدد من المراحل، فالمنحنى

الحضارى لنا صعد، ثم ثبت ثم بدأ فى النزول، ولابد من الاعتراف بأننا فى حالة نزول حضارى الآن والسيادة فى العالم ليست لنا، واتخاذ قرار معين يمكن أن يؤدى إلى ضربنا بصواريخ كروز مثلاً أو التعرض لعدوان على غرار العراق وأفغانستان وبالتالى فيدنا ليست مطلقة فى كل شىء، الصحيح أن هناك تداخلات دولية وإقليمية لانفكاك منها، وأنه مهما كانت قوتنا فأعداؤنا أقوى بمراحل وبالتالى يجب عدم التركيز على فكرة الحرب النظامية بل المواجهة بالإنسان سلاح الاستشهاد على مستوى التحديات الخارجية، وعلى مستوى محاولة النهضة يجب أن نعمل على عدة مراحل، أى يجب عدم حرق المراحل يجب أن نعترف أولاً بأننا فى حالة نزول حضاري، ينبغى تقليل عجلة النزول، ثم تقليل سرعة النزول، ثم إيقاف النزول، ثم أحداث إنقلاب فى المنحنى باتجاه الصعود، ثم الصعود، وهذا يقتضى بالطبع مجهوداً جباراً لابد من بذله وإلا فسوف تهدر طاقاتنا دائما ونعود كل مرة من حيث بدأنا، يجب أن نحدث نوعاً من التراكم المعرفى والخبرة المنقولة دائما، وأن نضع فى اعتبارنا أننا كحركة فى مرحلة ما وبمسمى ما لا تستطيع ولا ينبغى لها أن تحاول حل كل الإشكاليات وأنها ستحقق كل شئ، بل تعمل على إحداث نوع من التراكم الإيجابي والتقدم خطوة أو خطوات حتى لاتضيع الجهود، وهذا يقتضى نوعاً من التواضع وطول النفس، وهذا يفسر نجاح بعض الحركات التى حددت لنفسها نوعاً معيناً من النشاط الاجتماعى مثلاً فقدمت إسهاما إيجابيا، فى حين أن الحركات التى وصفت نفسها بأنها كل شيء: حركة سياسية وعقائدية واجتماعية ومالية وسلفية ومستقبلية وصوفية وعسكرية.. الخ فإنها تقريبا فشلت فى كل شيء مع ثمن باهظ وهائل بلا مبرر.